﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَا تُبۡصِرُونَ ٣٨ وَمَا لَا تُبۡصِرُونَ ٣٩ إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ٤٠ وَمَا هُوَ بِقَوۡلِ شَاعِرٖۚ قَلِيلٗا مَّا تُؤۡمِنُونَ ٤١ وَلَا بِقَوۡلِ كَاهِنٖۚ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ٤٢ تَنزِيلٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٤٣﴾

[الحاقة 38 - 43]

❁ مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قبلَها:

استحالةُ تركِ الخَلْقِ هَمَلًا بعد إقامةِ الحُجَّة وإنزالِ القُرآن

لمّا فُصِّلت أحوالُ القيامة التي هي دارُ الفَصْلِ بين الطّائع والعاصي، وأُقيمت الحُجَجُ الباهرة بهلاك المُكَذِّبين ونجاة المُؤْمنين؛ كان مِن تَمام ذلكَ أنْ يُبيَّن أنَّ هذا التَّفصيل والبيانَ لا يكون عبثًا، بل لتقرير الحقِّ وإنذار الخَلْق، وأنَّه لا يليق بحكمةِ اللّهِ تَعالى أن يُقِرَّ الكاذبَ، أو يُهمِل الخَلْق بعدَ إرسالِ الرُّسل، فجاء التَّوكيد الأعلى على صِدْقِ هذا البلاغِ العَظيم، وثباتِه على الحقِّ، وأنَّه ليس بكلام البشَرِ، وإنَّما هو قولُ رسولٍ كريمٍ موحًى إليه، فقال سُبحانَهُ: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَا تُبۡصِرُونَ﴾ الآيات[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿كَرِيمٍ﴾: أصلُ (كرم) يدُلُّ على الجودِ وكَثرَةِ الخَيْرِ، يُقالُ: كَرُمَ الرَّجُلُ؛ إذا جادَ وأعْطَى دون انتظارِ مُقابِلٍ[2]، والكَرَمُ: الشَّرَفُ، يُقال: كَرُمَ الرَّجُلُ كَرَمًا وكَرامةً، أيْ شَرُفَ، ويأتي الكَرَمُ بمعنى العِزَّةِ والرِّفْعَةِ، وأكْرَمَ الشَّخْصَ؛ إذا رَفَعَ شَأْنَهُ وفَضَّلَهُ[3]، والكَريمُ: كَثيرُ الخَيْرِ حَميدُ الصِّفاتِ، وضِدُّه: البخيلُ واللَّئيم[4]، ومِن مَعانيه أيضًا: العَظيم، والنَّبيلُ، وذو الفَضْلِ، وذو الصَّفْحِ، والمُحْسِنُ، وذو

(1) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 373.

(2) ابن دريد، جمهرة اللغة، والأزهري، تهذيب اللغة: (كرم).

(3) ابن الأثير، النهاية: (كرم)، والمناوي، التوقيف على مهمات التعاريف، ص: 603، والجرجاني، التعريفات، ص: 236.

(4) الجوهري، الصحاح، وابن منظور، لسان العرب: (كرم).

السّيادَةِ[1]، ووُصِفُ جِبْريلُ ﷺ بـالكريم هنا؛ لأنَّه الكريمُ في صِنْفِه، أي النَّفيسُ الأفْضَلُ[2].

2) ﴿كَاهِنٍ﴾: أصلُ الكَهانَةِ مِن التَّكَهُّنِ، وهو: التَّخَرُّصُ والتَّخْمينُ والظَّنُّ والكَذِبُ[3]، والكاهِنُ: الشَّخْصُ الذي يَدَّعي مَعْرِفَةَ الغَيْبِ وخَفايا الأُمورِ، يُقال: كَهَنَ، يَكْهَنُ، ويَكْهُنُ، كَهانَةً، أي ادَّعَى مَعْرِفَةَ ما غابَ وخَفيَ[4]، والكاهِنُ أيضًا: الذي يُخْبِرُ عن الأشياءِ المَخفيَّةِ والأسرارِ برَأْيِهِ وظَنِّه[5]، ومِن مَعانيه أيضًا: الفَطِنُ بالأشياءِ، والجَمْعُ: كَهَنَةٌ وكُهَّانٌ[6]، والكاهِنُ: الذي يُخبِر بالأخبارِ الماضيَةِ الخَفيَّة بضربٍ مِنَ الظَّنِّ، والعرّاف الذي يخبر بالأخبار المستقبلةِ عَلى نحوِ ذلك، وقد قال النَّبيُّ ﷺ: "من أتى عرّافًا أو كاهِنًا، فصدَّقه بما يقول؛ فقد كفر بما أنزل على محمَّد"[7]، ويقال: كَهُنَ فلان كَهانَةً؛ إذا تعاطى ذلك، وكَهَنَ؛ إذا تخصَّص بذلك، وتَكَهَّنَ: تكلَّف ذلك[8].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

عَظَمةُ الوحيِ وبراءةُ الرَّسولِ ﷺ وتَنْديمُ المُكَذِّبين

يُقسِم اللّهُ سُبْحانه بما يُرى من الأشياءِ المَشهودَة، وما لا يُرى من الغُيوب؛ تأكيدًا على أنَّ هذا القرآن العظيم هو وحيٌ من اللّهِ تَعالى، يبلِّغه رسولٌ كريمٌ شريفُ المنزلة، لا كما زعَمَ المشركون أنَّه شِعرٌ أو كِهانة؛ إذْ لا يكادون يُؤْمِنون، أو يتفكَّرون، بل هو تنزيلٌ من ربِّ العالمين، كلامٌ لا يُشبِهُ كلامَ البشَر[9].

(1) الزبيدي، تاج العروس: (كرم).
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 142.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة، وابن سيده، المحكم: (كهن).
(4) الزبيدي، تاج العروس: (كهن).
(5) الجرجاني، التعريفات، ص: 183، والكفوي، الكليات، ص: 1236.
(6) ابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (كهن).
(7) رواه أبو داود في سننه، برقم: (3904)، والترمذي في جامعه، برقم: (135)، والنسائي في الكبرى، برقم: (9017)، وابن ماجه، برقم: (639) مطولًا بنحوه، وأحمد في مسنده، برقم: (9536) باختلاف يسير، وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير وزيادته، برقم: (5939).
(8) الراغب، المفردات، وابن الأثير، النهاية: (كهن)، وابن جرير الطبريّ، جامع البيان: 18/ 222.
(9) نخبة من علماء التفسير، التفسير الميسر، ص: 568.

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

موقع جملة: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَا تُبۡصِرُونَ﴾:

جيءَ بالفاءِ في صدر الجُمْلَة في قول اللّهِ تعالى: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَا تُبۡصِرُونَ﴾؛ لتَربط هذا القَسَمَ بما قبله من سياق التَّهديد والوعيد، فيكون القَسَمُ هنا تفريعًا على ما تقتضيه المكذِّبات السّابقة من جُرْأتِهم على نفي البعث، واستهزائهم بالرِّسالة، واستخفافهم بالقرآنِ نَفْسِه.

التَّكذيبُ بالبعثِ يَستَدعي إثباتَ صدقِ الرَّسولِ ﷺ وصدقِ القرآنِ بقَسمٍ جامعٍ لعوالمِ الشَّهادةِ والغيبِ

فكأنَّ السّياق يقول: إذا كانوا يُكذِّبون بالبعثِ - وقد أخبر به القرآنُ - ويُكذِّبون مَن جاء به، فدونَكُم هذا القسم العظيم على صدقِ ما جَحَدْتُموه، فالفاءُ إذًا تُفيد أنَّ هذا القسَمَ نتيجَةٌ ومقتضًى لازمٌ لذلك التَّكذيب، لا مقطوعٌ عنه ولا مستأنفٌ مِنْ غيرِ مناسبةٍ[1].

معنى هذا القسَمِ في سياقِ السّورة:

في القَسَمِ حُجَّةٌ قاطعَةٌ لدَفْعِ زَعْمِهم ورَدِّ باطِلِهم

هذا القسَمُ جاءَ في معرِض تَقْرير أنَّ القرآنَ الكريمَ مِن عِنْدِ اللّهِ تَعالى، لا هو قَول شاعرٍ، ولا قولُ كاهنٍ، بل هو تنزيلُ ربِّ العالمين، وهذا المعنى قد تكرَّر في السّورة بأشكالٍ مختلفة، فجاء القسَمُ هنا ليَرْبِطَ بينَ أمرَيْنِ، أحدهما: التَّكذيب بالبَعْثِ في أوَّل السّورة. والآخرُ: التَّكذيب بالوحي والرِّسالة والقرآنِ في هذا الموضعِ، فجمَعَ السّياقُ بين التَّكذيبَيْنِ، وجُعِلَ هذا القَسَمُ بمثابَةِ حُجَّةٍ قاطعَةٍ يُدفَع بها زَعْمُهم، ويُرَدُّ بها باطِلُهُم.

دلالةُ (لا) في قولِهِ: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ﴾:

(لا أقسمُ) أسلوبٌ قُرآنيٌّ يُرادُ به القسَمُ لا نَفْيُهُ

(لا) في قول اللّه تعالى: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَا تُبۡصِرُونَ﴾ تحتَمِلُ وجهين:

أحدهما: أن تكونَ (لا) صِلَةً، والمعنى: (أقسم)، وهو أسلوبٌ يُرادُ به التَّوكيد، أي: (أقسم أيمانًا عظيمةً بما تُبصرون، وما

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 140، 141.

لا تبصرون)، أي: بكلِّ شيءٍ دالٍّ على عظمَةِ اللهِ تَعالى مِن عالَمِ الشَّهادة والغَيْبِ.

والآخَرُ: أنَّ (لا) نافيةٌ، والمعنى: (لا أحتاج أن أُقْسِم)؛ لكثرة البراهينِ ووُضوحها، ممّا يجعل الحاجةَ إلى القسَمِ منفيَّة؛ لأنَّه غنيٌّ عن الإثبات بالقسَمِ، فدلَّ هذا التَّعبير على غاية التَّوكيد أيضًا، بأسلوبٍ أبلغَ في التَّحدي[1].

والأوَّلُ أظهَرُ، وهو أنَّ هذا قسَمٌ لا نفيٌ للقسَمِ؛ لأنَّ مثلَ هذا وردَ في القرآنِ الكريم، وصُرِّحَ بكونِهِ قَسَمًا، كما في قول الله تعالى: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ۝٧٥﴾ [الواقعة: 75]، وقال عنه: ﴿وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ ۝٧٦﴾ [الواقعة: 76].

وهذا الأسلوبُ لهُ أصلٌ في كلام العرَبِ؛ إذْ كانوا يَتَحَرَّجون أحيانًا من القَسَمِ بشيءٍ عظيمٍ خشيةَ أن يَحْنَثوا، فإذا أراد أحدُهُم أن يُؤكِّد القولَ تأكيدًا بالغًا دونَ أن يتحمَّل مسؤوليَّة الحِنْث، قال: (لا أقسم)، أي: أمتنع عن القسم تعظيمًا للمقسَم به، لا لأنَّني لا أومن بالقول، ثُمَّ شاع هذا التَّركيب في لسانهم؛ دالًّا على القسم المؤكَّد، وأُغفِل فيه أصل النَّفي، فصارت (لا) في هذا السّياق كأنَّها زائدة في المعنى، وإن كانت ذاتَ وظيفة بلاغيَّة دقيقة تُشعر بعظمَةِ المقسَم به وقوَّة البيان[2].

بلاغَةُ افتِتاح الآياتِ بأُسْلوبِ القسَم:

الإيـذانُ بِعِظَمِ ما يُقال وتأكيدُ حقيقتِهِ

جاء افتتاحُ هذا المقطعِ مِنَ السّورة بِالقسَمِ؛ إمعانًا في تحقيق مَضْمونِ الوَحْيِ وصِدْقِ الرَّسول ﷺ وكون القرآن مِن عند الله تَعالى، في مَعْرِض الرَّدِّ على تَكْذيبِهِم، وكأنَّ السّياق يقول: (أقسم بكلِّ مرئيٍّ وغير مرئيٍّ، بكلِّ دليلٍ في الأرض أو في الغَيْب؛ أنَّ هذا

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 9/ 27، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 141.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 9/ 27، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 141.

القولَ هو حقٌّ من عند الله سُبحانَهُ)، فكان افتتاحُ الكلام بالقسَم بهذهِ الصّيغة إيذانًا بعِظم ما سيُقال، وتأكيدًا لحقيقتِه، وإبطالًا لإنكارِ المُنكِرين[1].

دلالَةُ (ما) في ﴿بِمَا تُبْصِرُونَ ۝٣٨ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ﴾:

عـمـومُ المُبْصَـر وغيرِ المُبْصَرِ

(ما) في قول الله تعالى: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ۝٣٨ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ﴾ اسمٌ موصولٌ دالٌّ على العموم في الموضِعَيْن، فهي تشمَلُ كلَّ ما يقَعُ عليه البصَرُ، وكُلَّ ما لا يقعُ عليه البصَرُ.

بلاغةُ الطِّباقِ في ﴿بِمَا تُبْصِرُونَ ۝٣٨ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ﴾:

تَـقْـويَـةُ القسَمِ وتعظيمُ المُقْسَمِ بِهِ

بين (ما تبصرون) و(ما لا تبصرون) من قول الله تعالى: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ۝٣٨ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ﴾ طباقُ سَلْبٍ، وفيه الجَمْعُ بينَ يقعُ تحت البصرِ وما يخفى عَنْهُ، فشَمِلَ ذلكَ الوجودَ كُلَّه شاهِدَهُ وغائبَهُ، وفي هذا التَّضادِّ استحضارٌ للقدرةِ الإلهيَّةِ المحيطةِ بالغَيْبِ والشَّهادةِ جميعًا، وتقويةٌ للقسَمِ الإلهيِّ وإظهارٌ لعظمةِ المُقْسَمِ بِهِ.

نُكْتَةُ حذفِ المفعولِ في ﴿تُبْصِرُونَ﴾:

طَـيُّ مـا دلَّ الـسّـيـاق عليه إيجازًا واختصارًا

حُذِفَ المفعولُ في الفعلِ ﴿تُبْصِرُونَ﴾ من قَول اللهِ تَعالى: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ۝٣٨ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ﴾، وهو العائدُ فيهما، والتَّقدير: بما تُبصرونَهُ، وما لا تُبصرونَهُ، وحَذْفُ العائدِ في مثلِ هذا كثيرٌ؛ لكونِهِ منصوبًا بالفِعْلِ، وفي هذا الحذْفِ ضربٌ من ضروبِ الاختصارِ بطَيِّ ما دلَّ السّياقُ عليهِ.

البلاغةُ في تَوْكيدِ التَّركيب: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾:

التَّوكيد الشَّديد شـهـادةٌ على صِـدْقِـه ونقضٌ لتَكْذيبِهِم

جاء توكيدُ الخبَرِ بـ (إنّ) واللّام معًا في قول الله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾، وهو توكيدٌ ثقيلٌ يُستعمَل في معرِض الرَّدِّ على مَن أنكَرَ أو شكَّ، فهذا التَّركيبُ يُفيدُ الرَّدَّ الحازِمَ على الذين أنكروا أن يكونَ القُرآن الكريمُ من عندِ اللهِ تَعالى، أو زعموا أنَّه من قولِ

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 9/ 27، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 141.

بشرٍ، فجاءت الآيةُ حجَّةً عليهم وتقريرًا لحقيقة ناصعَةٍ: أنَّ هذا القول صادرٌ عن رسولٍ كريمٍ، لا عن شاعرٍ أوْ كاهنٍ[1].

عَوْد الضَّمير وأثرهُ البلاغيُّ في: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ﴾:

القرآنُ الكريمُ صادرٌ عن الوَحْي، لا عَن بشَرٍ

الضَّمير في قول اللهِ تَعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ عائدٌ إلى القرآنِ الكريم، وإن لَم يُذكر صراحةً، بل فُهِمَ من السّياق الذي تحدَّث عن الحَشْرِ والبعث، وهي مِنَ القَضايا الكُبْرى التي جاء بها القرآنُ، وكان تكذيبُهم بها من أعظَمِ أسباب طَعْنِهم فيه.

وقد جرى في مواضعَ مِنَ القرآنِ أن يُراد بالضَّمير الغائب - غير المصرَّح بمَعادِهِ - القرآنُ الكريم، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾﴾ [الشعراء: 192 - 193]، وقوله سُبحانَهُ: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ﴿١﴾﴾ [القدر: 1]؛ لِما له مِن حُضورٍ في الذِّهن وغِنًى في الدَّلالة، فصار يُشار إليهِ بالضَّمير لاشْتِهارِهِ[2].

وجهُ الإضافةِ وأثَرُها في: ﴿لَقَوْلُ رَسُولٍ﴾:

الإضافَةُ إلى لفظِ الرَّسول بيانٌ للواسِطَةِ في التَّبليغ، لا نفيٌ لكون القرآنِ وحيًا إلهيًّا خالصًا

إضافة (قول) إلى ﴿رَسُولٍ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ هي إضافةٌ لأدنى ملابسَةٍ، وهي إضافةٌ بيانيَّة، أي: لِبيانِ الصِّلة بين الرَّسول والقول، لا لإثبات إنشاء القولِ منهُ ابتداءً، فجبريلُ بلَّغ هذا القول إلى النَّبيِّ ﷺ، والنَّبيُّ ﷺ بلَّغه إلى الأُمَّةِ، لا أنَّ واحدًا مِنْهُما أنشأه مِن تلقاء نفسِه، وإنَّما هو مُبَلِّغٌ عمّا أوحي إليه.

إيضاحُ واسِطَةِ التَّبليغ، لا أصلِ المَصْدَرِ

فالنِّسبة هنا تُظهر واسطةَ التَّبليغ، لا أصلَ المصدر؛ إذ القرآنُ كلامُ اللهِ تَعالى أنزله بواسطة جبريلَ عليه السلام إلى النَّبيِّ محمَّد ﷺ، ثُمَّ بلَّغهُ النَّبيُّ ﷺ.

وهذا أسلوبٌ شائعٌ في لسان العرب، أن يُضاف القولُ لمن نقَلَهُ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 141.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 141.

وبَلَّغه، وإن لم يكُن هو مُنشِئَه، كما يُقال: (قال فلانٌ في خطبته كذا)، وهو إنَّما تلا آياتِ اللهِ تَعالى أو أحاديثَ نبيِّه ﷺ[1].

دلالَةُ التَّعبير بلفظ: ﴿رَسُولٍ﴾:

التَّعبير بلفظ (رسول) دالٌّ على المرجعيَّة الإلهيَّة لِلقَوْلِ

اختير لفظ ﴿رَسُولٍ﴾ دون (نبيٍّ)؛ لِما في لفظ الرِّسالة من الإيذانِ القويِّ بأنَّ المتكلِّم الحقيقيَّ هو مرسِلُ هذا الرَّسول، لا الرَّسول نفسُه، فالرَّسول لا يأتي بشيءٍ من قِبَله، بل يبلِّغ عن غيره، فهو واسطَةٌ في نَقْلِ القَوْلِ لا مصدرٌ لَهُ.

وتأكيدًا لهذا المعنى، وإزالةً للَّبْس؛ أعقب اللهُ سبحانه هذا الإيذانَ بقولِهِ المؤكَّد: ﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، فصرَّح بأنَّ القرآن نزلَ مِن عندِهِ سُبحانَهُ، وأنَّ الرَّسول الكريم ليس إلّا مبلغًا، فانعقد بذلك المعنى من جهتين، مِن جهة الوصف بـ ﴿رَسُولٍ﴾، ومن جهة التَّصريح في قولِهِ: ﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[2].

دلالة تنكيرِ ﴿رَسُولٍ﴾ ووصفِهِ بـ ﴿كَرِيمٍ﴾:

إثبـاتُ تميُّزِ الـرَّسـول ﷺ وتفضيله

وصَفَ اللهُ تَعالى الرَّسولَ هنا بـ﴿كَرِيمٍ﴾ دون أن يخصَّ اسمَه، في قوله: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾، فدلَّ الوصفُ مع التَّنكير على كمالٍ متميِّز في جِنْسِه، أي: أنَّه أشرفُ الرُّسل وأكملُهم، فالكريم في لسان العربِ هو الشَّيء النَّفيس في نوعه، فكما تقول: (فرس كريم)، أي: أشرَفُ ما في جِنْسِه، فكذلك ﴿رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ تعني الرَّسول الأفضلَ في صِنْفِ الرُّسُلِ.

إثبـاتُ الفَضْلِ المَحْضِ على غيره من الرُّسُل

ففي هذا الوصف الكريم إيماءٌ إلى رفعة منزلةِ النَّبي ﷺ عندَ اللهِ تَعالى، وتفضيله على سائر الرُّسل والأنبياء، وهو من وجوه التَّنويه بشأنه وتعظيم مكانته، دون الحاجةِ إلى التَّصريح بالاسم[3]،

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 141.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 142.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 142.

أو فيه بيانُ منزلةِ جبريلَ ﷺ وفَوَقانِه على سائرِ الملائكةِ، وهذان قولانِ في مَعْنى ﴿رَسُولٍ﴾.

الدَّلالة التَّركيبيَّة لجُمْلَةِ: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ﴾:

تـوكـيـدُ النَّـفـي لتَفْنيدِ دَعـاوى خُصوم الوَحْي

قوله تعالى: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ۝٤١ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ يُنَزِّه فيه القرآنُ الكريمُ عن أن يكونَ من قولِ الشّاعر أو الكاهن، بنَفيَين مُؤَكَّدَيْن: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ﴾ و﴿وَلَا بِقَوْلِ﴾، فالجُمْلَةُ الثّانية معطوفَةٌ على الأولى لتأكيدِ الاستِبعادِ ونَقْضِ التُّهم المتعدِّدة.

وقد دخلت (لا) لتأكيدِ نفي (ما)، وهذا مِن أساليبِ التَّوكيد التَّراكميِّ في اللُّغة؛ لردِّ مزاعم المُشْرِكين في شَتّى اتِّجاهاتِهم.

معنى الباء في ﴿بِقَوْلِ﴾ ودلالتُها:

تـأكـيـدُ دَفْـعِ الافـتـراءاتِ عَـنِ القرآنِ الكريمِ

الباءُ في قولِ الله تعالى: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ﴾ صلةٌ يُرادُ بها التَّوكيدُ، فتكون الجملةُ نافيةً للشّاعريَّةِ عن القرآن الكريم على وجهٍ مؤكَّدٍ، وتقوّي مَعْنى النَّفْي دفعًا لأيِّ شُبْهَةٍ.

دلالةُ الإضافة في (قول شاعر):

لـيـسَ الـقـرآنُ بـشِـعْـرٍ ولا هو بقَوْلِ الشُّعراءِ

الإضافة في (قول شاعر) من قول الله ﷻ: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ﴾ من إضافة المصدَرِ إلى فاعِلِه، وهي إضافةٌ يُرادُ بها التَّخصيصُ، وفي نفي أن يكون القرآنُ قولَ شاعرٍ مبالغةٌ في النَّفْي؛ إذ قطَعَ صِلَتَهُ بالشِّعرِ قطعًا باتًّا، فلا هو شعرٌ، ولا هو مِن مُنشَآتِ الشُّعراء، فهو أبلغُ من قولنا: (وما هو بشِعْرٍ)، وأعمُّ في النَّفْي.

موقعُ ﴿قَلِيلًا﴾ من الإعرابِ في قوله: ﴿قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ﴾ ودلالتُها:

تكذيبُهُم بأكْثَرِ مـا جـاءَ في الشَّرْعِ المُنَزَّل

لفظُ ﴿قَلِيلًا﴾ من قول الله تعالى: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ﴾ صفةٌ لمصدرٍ محذوفٍ، فيكون مفعولًا مطلقًا، أو هو صفةٌ لزمانٍ محذوفٍ، فيكون ظرفَ زمانٍ، والمعنى على الأوَّل: تؤمنونَ

إيمانًا قليلًا، وعلى الآخَر: تؤمنونَ زمانًا قليلًا[1]، والمقصودُ: أنَّهم يؤمنونَ بشيءٍ قليلٍ ممّا جاءَ به الرَّسولُ ﷺ، وليس المرادُ النَّفْيَ المحضَ[2]، قال أبو حيّان: "ولا يراد بـ ﴿قَلِيلًا﴾ هنا النَّفي المحض، كما زُعِمَ، وذلك لا يكون إلّا في (أقل)، نحو: أقلُّ رجُلٍ يقول ذلك إلّا زيد، وفي (قَلَّ)، نحو: قلَّ رجلٌ يقول ذلك إلّا زيد، وقد تُستعمَل في (قليل) و(قليلة)؛ إذا كانا مرفوعين ... أمّا إذا كان منصوبًا، نحو: قليلًا ضربت، أو قليلًا ما ضربت، على أن تكون (ما) مصدريَّة؛ فإنَّ ذلك لا يجوز؛ لأنَّه في: قليلًا ضربتُ، منصوبٌ بـ: ضربت، ولم تَستَعمِل العربُ (قليلًا)؛ إذا انتصبَ بالفِعْلِ نفيًا، بل مقابلًا لـ: كثير"[3].

نكتَةُ المُغايرة بينَ نفيِ الإيمانِ ونَفْيِ التَّذكُّر:

دقَّـــةُ الـنَّـظـم القرآنيِّ في اختيار الألفاظِ المُناسِبَةِ لسياقاتِها

قال الله تعالى: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ۝٤١ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾، فنَفَى الإيمانَ عنهم عقِب تنزيه ما جاء به ﷺ من القرآن عن أن يكون شعرًا، ونفى التَّذكُّر عنهم عقِبَ تنزيهه عن أن يكون من قبيلِ قول الكُهّان؛ وذلك "لأنَّ نفيَ كون القرآن من أقوالِ الكهَنَةِ أمرٌ لا يحتاج إلى كبيرِ نظَرٍ ولا استعمال طولِ فِكْرٍ، بل يوصل إلى ذلك بأدْنى التفات؛ فناسب هذا نفي التَّذَكُّر، وأمّا تنزيهه عن إلحاقِه بقَبيلِ الشِّعر وما يَرْجِع إلى نحوِ ذلكَ مِن أقوالِ الخُطباء وأسْجاعِهِم، فقد تَوَهَّم الجاحِدُ الظَّلوم المُتعامي عن النَّظر وصرْفِ التَّفكير إلى تدَبُّره والإصغاء إلى سماعِه، المُترامي إلى التَّعلُّق بأدنى شُبْهَةٍ يَسْتَريحُ إليها رجوعه إلى ذلك؛ فناسَب هذا نفي التَّصديق؛ لأنَّه إنَّما يكون عن ركوبٍ إلى نظَرٍ وتَفَكُّر، فجاء كلٌّ على ما يُناسِبُ"[4].

(1) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 10/ 205.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 15/ 59.
(3) أبو حيان، البحر المحيط: 10/ 265.
(4) ابن الزبير الغرناطي، ملاك التأويل: 2/ 482.

بلاغةُ الكناية في دفع التُّهَم عن شخصيَّة النَّبيِّ ﷺ:

الجَمْعُ بينَ الذَّبِّ عن النَّبيِّ ﷺ والذَّبِّ عن الوحي معًا

عدَلَ النَّظمُ القرآنيُّ عن نفي الصِّفة عن النَّبيِّ ﷺ مباشرَةً، إلى نَفْيِ كونِ القرآنِ قولَ شاعِرٍ أو كاهِنٍ في قول اللهِ تعالى: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ﴾... ﴿وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ﴾؛ كنايَةً عَن تنزيهِ النَّبيِّ ﷺ عن هاتين الصِّفتين، فبدل أن يأتي النَّظمُ: (ما محمَّدٌ بشاعرٍ ولا كاهنٍ)، قال: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ﴾ ... ﴿وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ﴾؛ لأنَّ الطَّعن كان موجَّهًا إلى القرآن الكريم، فصار نفيُهما جامعًا بين الذَّبِّ عن الرَّسول ﷺ والذَّبِّ عن الوحيِ معًا.

الرَّدُّ على مزاعِمِ الخُصوم بلغَةٍ نَبيلَةٍ

وهذا النَّفي الكِنائيُّ أبلَغُ في الرَّدِّ؛ لأنَّه يُظهِر مكانة النَّبيِّ ﷺ السّاميةَ، فلا يوجَّه إليه النَّفي بنصِّه، بل يوجَّه إلى ما يُنسب إليه من باطلٍ، كأنَّ التُّهمة في ذاتها لا تستحقُّ الالتفات، ممّا يعزِّز المقام، ويُبطل البهتانَ بلُغَةِ رفعَةٍ وإجلالٍ[1].

نُكْتَةُ الاقتِصار على مضمونِ النَّفيَينِ - الشِّعر والكهانة - دونَ غيرِهما:

اقتَصَر النَّفْيُ على وصْفَي الشّاعر والكاهنِ في قوله تعالى: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ﴾... ﴿وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ﴾، دونَ سِواهُما مِنَ الطُّعون، كقَوْلِهم: (مجنون) أو (مُفْتَرٍ)؛ لأنَّ وصف ﴿رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ الذي سبقَ هذه الآياتِ يتضمَّن باللُّزوم نفي الجُنون والكذِب؛ إذِ الكريم منزَّهٌ عن مثل هذه النَّقائص، أمّا الشّاعر والكاهنُ فقد كانا يُعدّان في أعراف العرب من أصحابِ الشَّرف والنَّباهة، فاحْتيجَ إلى نفي مُشابهَةِ النَّبيِّ ﷺ لَهُما، لا من جِهَةِ الخِسَّة، بل من جهةِ كونِهما لا يتلقَّيان وحيًا، ولا يُبَلِّغان عن اللهِ تَعالى.

اقتَصَر النَّفي على أوصافٍ يَشْتَبِهُ شَرَفُها، أمّا النَّقائصُ المحضةُ؛ فدَفَعَها وصفُ الرِّسالة بالكرَمِ

التَّدرُّج في إبْطالِ الشُّبه بحسَبِ مَوْقِعِها في العُقول

فالآيات تنفي أوَّلًا أوصافًا يَحْتَمِل أن تَلْتَبِس على السّامع؛ بسببِ مكانَةِ الشُّعراء والكُهّان في الجاهليَّة، ثُمَّ تُحيل على نفي بقيَّة

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 142.

الأوصاف بالدَّلالة السّابقة في وصف ﴿كَرِيمٍ﴾، فيكون نفيُ الافتراءِ والجنونِ متضمَّنًا غيرَ مذكور، وهو أبلغُ في الرَّدِّ وأقوى في الحُجَّة[1].

دلالةُ الجَمْع بينَ نَفْيِ الشّاعريَّة ونفي الكِهانة:

نُفيَ كونُ القرآنِ الكريمِ قولَ شاعِرٍ؛ لأنَّهم وصفوهُ تارةً بالشِّعر، ثُمَّ أُعْقِبَ بنفي الكِهانة التي اتَّهموه بها، فجُمِع في النَّفي بين الوَجهَين المُتقابِلَين عندَ العرَبِ؛ كنايةً عَن إفلاسِهم في تحديدِ مَصْدَرِ القُرآن، ممّا يَدلُّ على عَجْزِهم عَنِ الطَّعن فيه مِن جِهَةٍ واحدَةٍ ثابتَةٍ[2].

حَشْدُ الشُّبَهِ للطَّعْن في النُّبوَّة

دلالَةُ التَّذييل بقولِهِ: ﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾:

التَّذييل بجملة: ﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ يفيد قلَّة تذكُّرهم وتدبُّرهم لِما يُلقَى إليهم، وقد جاءت هذه الجملةُ على وجه التَّعجُّب من شدَّة غَفْلَتِهم، فكأنَّ المعنى: ما أغْفَلَكُم عن هذا الحقِّ البَيّن، وهذا الرَّسولِ الكريمِ، وهذا القرآنِ المُنَزَّل من ربِّ العالمين!.

التَّعجُّب يُتمِّم معنى النَّفي ويُدين الغَفْلة

فبعد أن نُفي أن يكون القرآنُ مِن قول كاهنٍ، جاء هذا التَّذييل: ﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾؛ ليُقرِّر أنَّ الذي يورِثكم هذه الشُّبهات هو غفلتُكم، لا ضعفُ البيان، ولا قلَّةُ الحجَّة، فلو تذكَّرتم وتدبَّرتم؛ لَما التَبَسَ عليكم الحقُّ.

التَّناسب البلاغيُّ مع النَّفي السّابق

وهذا التَّعبير فيه نَفَسٌ من التَّوبيخ المضمَّن بالاستغرابِ، وهو من أقوى الأساليبِ البلاغيَّة تأثيرًا؛ إذ يَحْمِلُ المَعْنى في صورةٍ شُعوريَّة تُثير الوعيَ، وتَكْشِفُ مقدارَ الانحرافِ عَن مُقتَضى العَقل[3].

بلاغَةُ أُسلوبِ التَّعجُّب

بلاغَةُ الكناية في التَّعبير بالقلَّة في: ﴿قَلِيلًا مَّا﴾:

لفظة ﴿قَلِيلًا﴾ في قوله تعالى: ﴿قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ﴾ و﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾، إمّا أن يُرادَ بها وُجود قليلٍ مِنَ الإيمانِ أو التَّذكُّر، أو

فَضْحُ القرآنِ الكريم لِلمُعانِدين بأسلوبِ التَّهكُّم

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 142.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 142.
(3) الطيبي، فتوح الغيب: 15/ 630.

يُقصَدُ بها نفيُهما أصلًا، وهذا مِنَ الأساليب البلاغيَّة المعروفةِ في الخِطاب؛ إذ يُذكَر (القليلُ)، ويُراد به (العدم)، ولا سيَّما إذا كان في سياقِ التَّوبيخ أو التَّقريع إلّا أنَّ الأظهرَ إرادَةُ القلَّة هنا على بابِها.

وهذا التَّعبير يتضمَّن نوعًا من التَّهكُّم اللّاذع، والتَّقريعِ لهم بطريقة أكثرَ إيلامًا وبلاغَةً[1].

الدَّلالة الإعرابيَّة لِلَفْظِ ﴿قَلِيلًا﴾:

انتصب لفظ ﴿قَلِيلًا﴾ في قوله تعالى: ﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ على أنَّه صِفَةٌ لمصدرٍ محذوف أو ظرفُ زمان محذوف، والتَّقدير: (تذكَّرون تذكُّرًا قليلًا) أو (في زمن قليل)، وهذه التَّقديرات سائغَةٌ عند النُّحاة بحسَبِ السّياق.

تنويعُ المعنى بين القِلَّة الزَّمنيَّة والكمّيَّة

وإفادة ﴿قَلِيلًا﴾ إمّا أن تكون من جهة الكمِّ، أي: القدر الضَّئيل من الإيمان والتَّذكُّر، أو من جهة الزَّمن، أي: أنَّكم لا تتذكَّرون إلّا نادرًا في الزَّمن، وكلا المعنيين يُصوِّر الواقع المُرَّ لحالهم، ويدلُّ على الغفلةِ البالغة والانقطاع عنِ الهُدى.

التَّنويع البلاغيُّ يَزيدُ التَّأنيب

وهذا الوجهُ النَّحويُّ يفتح البابَ لفَهْمٍ أوسعَ في التَّوبيخ؛ لأنَّ فيه تقريرًا لِما هُم عليه من حالٍ سيّئة، ولكن بطريقٍ لغويٍّ بليغٍ يتردَّد بين ضَعْفِ الكمِّ وضيقِ الزَّمان[2].

توجيهُ معنى ﴿مَّا﴾ في قوله: ﴿قَلِيلًا مَّا﴾:

تنوُّع دلالة (ما) يُغني المَعْنى، ويُحْكِمُ التَّقرير

تعدَّدت احتمالاتُ ﴿مَّا﴾ إلى ثلاثةِ أوجُهٍ رئيسَةٍ، في قوله تعالى: ﴿قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ﴾ و﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾، وكلُّ وجهٍ منها يُفْصِحُ عَن توجيهٍ بيانيٍّ مختلفٍ:

أوَّلُها: أن تكون ﴿مَّا﴾ نافيةً، والمعنى: (لا تؤمنون أصلًا)، فيكون ﴿قَلِيلًا﴾ تمليحًا تهكُّميًّا، أي: أنَّكم لا تؤمنون بشيءٍ البتَّةَ.

---

(1) الزمخشري: 4/ 606، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 9/ 27، وابن عاشور: 29/ 142.

(2) البيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 242، وأبو حيان، البحر المحيط: 10/ 265، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 9/ 27، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 143، ودرويش، إعراب القرآن: 10/ 205.

ثانيها: أن تكون مصدريَّة، فيُؤَوَّل الكلام إلى (قليلًا إيمانُكم) أو (قليلًا تذكُّركم)، فيكون المصدر المؤوَّل (إيمانكم وتذكُّركم) فاعلًا لـ ﴿قَلِيلًا﴾، ويفيد هذا قِلَّةً حقيقيَّة في الإيمان والتَّذكُّر.

ثالثها: أن تكون صلةً للتَّوكيد؛ وهو الوجه الأقوى سياقًا، فيكون المقصودُ تأكيدَ قِلَّة إيمانهم وتذكُّرهم، لا نفيَها ولا مجرَّدَ الإخبار بها، وهذا أدخَلُ في باب التَّقريع والتَّوبيخ التَّقريريِّ[1].

الالتفاتُ بين الخِطاب والغَيْبَةِ في القراءات الواردة:

الالتفاتُ يعمِّق التَّوبيخ، ويُبقي الـسّـامـع في مَزْمَى اللَّوم

قرأ الجمهورُ قولَهُ تعالى: ﴿قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ﴾ و﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ بتاءِ الخطاب، وقرأ ابن كثيرٍ ويعقوبُ وهشامٌ عن ابن عامرٍ: ﴿قَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ﴾ و﴿قَلِيلًا مَّا يَذَّكَّرُونَ﴾ بالياء، على الغَيْبَة بدَلَ الخِطاب[2]، وعلى قراءةِ الغَيبِ يكونُ هذا انتقالًا من الخطاب في قولِه: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ۝٣٨ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ﴾، إلى الغَيْبَةِ في (يؤمنون) و(يذكرون)، فيكونُ التفاتًا بلاغيًّا من الخطاب إلى الغَيبةِ، وهذا التَّحوُّل يفيد تنويعًا في التوبيخ وزيادةً في الإعراض عَنْهُم، كأنَّ الخطاب لَمّا بلغ هذا الحدَّ من التَّقريع؛ استُثْقِل توجيهُهُ إليهم، فصُرِف إلى الغَيبة احتقارًا لهم، أو استكثارًا للحديثِ عَنْهُم بعدَ أنْ بانَ جُحودُهُم[3].

وجهُ مُناسبة خَتْمِ الجملتين بنَفْيِ الإيمانِ والتَّذكُّر:

إظـهـارُ عُـمْـقِ المُفارقة بينَ حال المدَّعين وحقائقِ البَيان

في قوله تعالى: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ۝٤١ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ مناسبةٌ دقيقة بين كلِّ جُزْءٍ وما خُتِم به، فادِّعاؤهم أنَّ القرآنَ الكريمَ قولُ شاعرٍ يواجَه بقلَّة الإيمان؛ لأنَّ هذا الادِّعاء مردودٌ ببداهة الحِسِّ والذَّوق، وهو من البهتان البيِّن، ولا

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 10/ 265، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 9/ 27، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 143، ودرويش، إعراب القرآن: 10/ 205.

(2) ابن الجزري، النشر في القراءات العشر: 2/ 390.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 143.

يقولُه إلّا مُكابِرٌ لا يُرتَجى منه إيمانٌ، بخلاف نفي كونهِ قولَ كاهن، فإنَّه يحتاج إلى قليلٍ مِنَ التَّأمُّلِ تُزالُ به الشُّبهة لمَن تذكَّر وتَدَبَّر، ولذا ناسب أن يُختم هذا بنفي التَّذكُّر.

فهناك فوارقُ بينَ الشّاعر والكاهن ألْحَقَتْ كلَّ فاصلةٍ بما يُناسِبُها: فلا يُنتظر ممَّن نَسَبَ القُرآنَ إلى الشّاعريَّةِ إلّا الجحودُ، فناسب نفيَ الإيمان، وأمّا الكاهنُ فقد يَشْتَبِه على مَن لم يُمْعِن النَّظر؛ فناسبَ نَفْيَ التَّذكُّرِ لا الإيمانِ، وفي ذلك عدلٌ في توزيعِ اللَّوم بحسَبِ وُضوحِ الفَوارق[1].

توجيهُ المُتشابِهِ اللَّفظيِّ بين سورة الحاقَّة وسورة التَّكوير:

دقَّةُ البيان القرآنيِّ في انتقاء الألفاظِ المُلائِمَةِ لسياقاتِها

قال اللّهُ تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ۝٤٠ وَمَا هُوَ بِقَوۡلِ شَاعِرٖۚ قَلِيلٗا مَّا تُؤۡمِنُونَ﴾، وقال سُبحانَهُ: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ۝١٩ ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي ٱلۡعَرۡشِ مَكِينٖ ۝٢٠ مُّطَاعٖ ثَمَّ أَمِينٖ ۝٢١﴾ [التكوير: 19 - 21]، فخَصَّ كلٌّ موضعٍ بما فيهِ بعد قوله: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ﴾؛ لأنَّ السّياق في سورة الحاقَّة كان أكثر تعلُّقًا بقوم النَّبيِّ ﷺ الذين قالوا عنه: شاعرٌ وكاهن؛ فناسَبَ نفيُ ذلك عنه بقوله: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوۡلِ شَاعِرٖۚ قَلِيلٗا مَّا تُؤۡمِنُونَ ۝٤١ وَلَا بِقَوۡلِ كَاهِنٖۚ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾. بخلاف ما في سورة التَّكوير، فقد تقدَّمها قول الله تعالى: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلۡخُنَّسِ ۝١٥﴾ [التكوير: 15]، فلمّا كان السّياق أكثرَ تعلُّقًا بالأمور السَّماويَّة العلويَّة؛ ناسبَه ذكرُ صفاتِ جبريلَ عليه السلام، بما يدلُّ على علوِّ شأنه وكرامته عند الله تعالى، فقال ﷻ: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ۝١٩ ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي ٱلۡعَرۡشِ مَكِينٖ ۝٢٠ مُّطَاعٖ ثَمَّ أَمِينٖ ۝٢١﴾ [التكوير: 19 - 21][2].

التَّصريحُ بمصدرِ القُرآن بعدَ نَفْيِ الشُّبهات يرسِّخ اليقينَ عندَ المُتَدَبِّر

موقِعُ جُمْلَة: ﴿تَنزِيلٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾:

قولُ اللّهِ تعالى: ﴿تَنزِيلٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ يَحتَمِل وجهَين،

(1) البيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 243، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 9/ 27، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 143.

(2) سعد عبد العظيم محمد، استدراك ما فات من بلاغة الآيات المتشابهات، ص: 871 - 872.

أحدهما: أن يكونَ خبرًا ثانيًا عن اسم (إنَّ)، فيكون المعنى: إنَّه لقول رسولٍ كريم، تنزيلٌ من ربِّ العالمين، وهذا تأكيدٌ صريحٌ للمراد، بعد التَّمهيد بالكناية. والآخرُ: أن يكون خبرَ مبتدأٍ محذوف، أي: هو تنزيلٌ من ربِّ العالمين، حُذِفَ للعلم به[1].

والجملَةُ في موقعِ الاستِئنافِ البيانيِّ؛ فإنَّه لمّا نُسب القرآنُ الكريمُ إلى ﴿رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾، ثُمَّ نُفيَ كونُهُ من قول شاعرٍ أو كاهن؛ نشأ سؤالٌ في ذهن السّامع عن مصدره الحقيقيِّ، فجاء الجوابُ استئنافًا بيانيًّا يُصرِّح بالمصدر: ﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، فجاء التَّصريح بعد الكنايةِ؛ ليرفعَ كلَّ التِباسٍ، ويُقابل النَّفي السّابق بإثبات قاطعٍ للحقِّ[2].

دلالة التَّعبير بالمَصْدَرِ في: ﴿تَنزِيلٌ﴾:

جاء لفظُ ﴿تَنزِيلٌ﴾ مصدرًا في قوله تعالى: ﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾؛ وذلك لِما في التَّعبير بالمصدَرِ من قوَّةٍ في الدَّلالة، ومبالغةٍ في إثبات الحقيقَةِ، فإنَّ الوصف بالمصدَرِ يُشبه نسبةَ الشَّيء إلى ذاته، وفيه تصويرٌ للعمَلِ من حيثُ هو، لا من حيثُ فاعلُهُ أو مَفعولُه فقط، ممّا يُعطي شعورًا بأنَّ التَّنزيل في غاية التَّحقُّق والرُّسوخ. ومن بلاغة المصدر في هذا الموضع أنَّه يُشير إلى تَكرار الفِعْلِ وتجدُّده، وكأنَّ التَّنزيل متتابع مستمرٌّ، لا دفعة واحدة[3].

التَّعبير بالمصدر يُعْلي شأنَ الفِعْلِ، ويُضفي عليه صفةَ الاستمرارِ واليقينِ

نكتة التَّعبير بوصفِ الرُّبوبيَّة المضافِ بدلًا مِنَ الاسم الأحسَنِ (الله):

التَّعبير بوصفِ الرُّبوبيَّة مضافًا إلى ﴿ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، في قول الله تعالى: ﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ - بدلًا من الاسم العلَم (الله) - تنبيهٌ إلى أنَّ مُنزِّل هذا الكتاب ليس إلهًا خاصًّا بالمؤمنين، بل هو ربٌّ

إظهارُ وصفِ الرُّبوبيَّة العامَّة يُلغي كلَّ مرجع بشريٍّ مزعومٍ في مقامِ التَّلقّي والتَّعظيم

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 347.

(2) الطيبي، فتوح الغيب: 15/ 630، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 144، ودرويش، إعراب القرآن وبيانه: 10/ 206.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 144.

جميع الخَلْقِ، ومنهم المخاطَبون بهذا القرآنِ الكريمِ، وكذلك مَن يُعظِّمونهم من الشُّعراء والكهّان، ففيه تذكيرٌ بأنَّ المرجعيَّة الكبرى التي يُحتكم إليها هي ربوبيَّةُ اللهِ تَعالى الشّاملةُ، لا مكانة الشُّعراء ولا منزلة الكهّان، ومِن ثَمَّ فإنَّ حُكْمَه وشرعَهُ المُتضمَّن في هذا التَّنزيلِ، أولى بالاتِّباع مِن كلِّ قولٍ بشريٍّ محدودٍ[1].

دلالةُ (أل) في ﴿ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾:

(أل) في ﴿ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ مِنْ قول الله تعالى: ﴿تَنزِيلُ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ دالَّةٌ على الاستغراقِ والعمومِ، فهو ربُّ جميعِ الخلائقِ، مِن إنسٍ وجنٍّ وملائكةٍ وغيرهم، وهذا فيه إبرازٌ لكمال الرُّبوبيَّة؛ بحَيث لا يخرج عن سلطانِ اللهِ تَعالى أحدٌ، وهذا يقتضي تعظيمَ شأنِ تنزيلِ القرآن الكريمِ ورفعةَ شأنِهِ.

إظهارُ كمالِ ربوبيَّةِ اللهِ تَعالى وعظيمِ سُلْطانِه

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 144.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الثالث والستون،
سورة المُلك من الآية 12 إلى سورة المَعَارج الآية 14
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1447هـ - 2026م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2026م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الثالث والستون، سورة المُلك من الآية 12 إلى سورة المَعَارج الآية 14
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2026.
مج. 63 ، 822 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-647-00-3
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 63 : المجلد الثالث والستون، سورة المُلك من الآية 12 إلى سورة المَعَارج الآية 14.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-647-00-3
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-7111585 بتاريخ 2026/01/07م،
الهيئة الوطنية للإعلام، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
"تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام"
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي "النجار"